شهرية السياسة الدولية

كان للسياسة العالمية فى شهر نوفمبر مظهران متمايزان أحدهما مألوف قد شهده الناس منذ انتهت الحرب العالمية الأخيرة ، وهو هـذا الصراع المتصل بين المنتصرين حول بسط السلطان والنفوذ . فالذى يشهده الناس من هذا الصراع هو بعينه الذى كانوا يشهدونه فى الأشهر الماضية ، بل فى العام الماضى أيضاً ، سواء اختلفت موضوعاته وأشكاله أم لم تختلف. فروسيا مثلا مصرة على أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط ، وسبيلها إلى ذلك هو الاشتراك فى حماية المضايق . والبريطانيون والأمريكيون يشفقون من هـذا الاتصال ويؤيدون تركيا التى تريد أن تحافظ على استقلالها وتأبى أن يشـترك الروس معها فى حماية هذه المضايق .

وليست هذه المسألة جديدة ، فعهدنا بها بعيد ، ولـكن الحديث فيها لا ينقضى ، وروسيا تسلك إلى حلها طرقا مختلفة ، تلين حيناً وتشتد حيناً ، ترسل المذكرات إلى تركيا مرة وإلى مؤيديها مرة أخرى ، بحيث صح مايقال من أن روسيا تثير بهذه المشكلة حرب أعصاب مرهقة . والمهم هو أن هذه المشكلة لم تتقدم ولم تتأخر ، فما زالت روسيا تصر ، ومازال الآخرون يرفضون ، ومازالت الصحف ورسائل البرق تفيض فى هذا الرفض ، وذلك الاصرار .

وروسيا من ناحيه أخرى تهاجم بوسائلها المعروفة فى الراديو والصحف وفى الاجتماعات الدولية العامة كمؤتمر الصلح وهيئة الأمم المتحدة ، سياسة البريطانيين والأمريكيين التى ترمى إلى التوسع فى بسط النفوذ فى الشرق الأوسط ، والتى ترمى إلى التكتل حول الرأسمالية فى غرب اوربا . والبريطانيون والأمريكيون يهاجمون السياسـة الروسية بوسائلهم المعروفة لانها فيما يرون تلقى الستار الحديدى على جزء من أوربا فى الشرق والجنوب والوسط ، وتجرى من وراء هذا الستـار ألواناً من الأحـداث ، يصفها البريطانيون والأمريكيون بأنها اعتداء على استقلال الأمم وازدراء لحرية الشعوب ، ويرى الروسيون أنها تحرير للأمم وتحقيق للحرية التى ينبغى أن يستمتع بها الانسان فى هذا العصر الحديث الذى يجب أن يكون عصر الحق والعدل والمساواة .

والعالم يشهد هذا الصراع الـكلامى ضيقا به غير مستوثق من نتائجه ، مقدراً أن هذه الدول الـكبرى تختصم فيما بينها بالـكلام وألوان الاعلان ؛ لأنها لا تستطيع أكثر من ذلك الآن ، وهى فى أثناء ذلك تصلح من أمرها وتتيح لشعوبها أن تضمد ما أصابها من الجراحات فى الحرب الماضية ، وتستعد استعداداً منكراً لمستقبل قريب أو بعيد .

ولـكن العـالم لا يقف موقف المتفرج الخائف الحذر الساخر فحسب ، وإنمـا يقف موقف الذى تصيبه آثار هذا الصراع ونتائجه فى حياته اليومية المباشرة . فالعالم منقسم بالفعل إلى مناطق نفوذ، تسيطر عليها الدول المنتصرة . وهذه المناطق نفسها هى موضوع النزاع وميـدان الصراع ؛ فمن الطبيعى أن تتأثر مصالحها المباشرة بما يكون بين المنتصرين من تنافس وخصام .

ويكفى أن تنظر إلى المشكلة اليونانية مثلا ، فـكل فرد من أفراد الأمة اليونانية متأثر فى حياته اليومية بهـذا الصراع بين الفريقين

المختصمين من المنتصرين . وقد كان بعض الناس يظن ان الاستفتاء اليونانى حول نظام الحكم سيضع حداً للمأساة التى يشقى بها الشعب اليونانى ، فتبين الآن فى صراحة وجلاء أن الاستفتاء لم يضع حداً لشىء ، ولعله أن يكون قد بدأ مأساة أشد هولا وترويعاً مما كان يجرى قبل الاستفتاء ، فالحرب الاهلية مازالت دائرة الرحا فى بلاد اليونان وهى تزداد عنفاً من يوم إلى يوم . وكان الروس يطالبون فى الدورة السابقة لهيئة الأمم المتحدة بجلاء البريطانيين عن بلاد اليونان ، ومازال الجنود البريطانيون مقيمين فيها إلى أجل لا سبيل إلى تحديده بعد . ونحن نسمع الآن أن الحكومة اليونانية القائمة تريد أن تشكو إلى هيئة الأمم المتحدة من جيرانها الذين يؤلبون عليها ويعدون الثورة فيها بما تحتاج إليه من قوة، وهؤلاء الجيران هم اليوغسلافيون والبلغاريون والألبانيون ، وهم كلهم خاضعون للنفوذ الروسى . ومعنى ذلك أن الشعب اليونانى العظيم الذى أبلى فى الحرب بلاءه الرائع وكان خليقاً أن يظفر من المنتصرين بالعناية والرعاية والعطف ، يشقى الآن بما يقوم بين المنتصرين من اختلاف شقاء يعرض أبناءه للفقر والجوع والموت فى كثير من الأحيان .

والقصة الايرانية ليست خيرا من القصة اليونانية ، فلم تكد إيران تفرغ من الخصومة بينها وبين روسيا وتستريح من مشكلة أذربيجان حتى ثارت الخصومة بينها وبين الانجليز ، ونشأت الاضطرابات والثورات فى جنوبها بعد أن لم تكد تهدأ فى شمالها . ووقفت إيران هذا الموقف المؤلم الذى لا تجد فيه راحة ولا أمنا لأنها لا تستطيع أن ترضى الروس والانجليز معا .

وحديث الشرق العربى أوضح وأبشع من أن نحتاج إلى ذكره فضلا عن الاطالة فيه . وهذا الصراع نفسه بين المنتصرين يعرض الشعب التركى لشر عظيم فهو مضطر إلى أن يظل فى حالة خوف وحفر واستعداد للطوارئ وإبقاء للجيش على أهبة الحرب ، وذلك يكلفه من المال أكثر مما يطيق . ويقال إن الميزانية التركية لم تبلغ قط من التضخم ما بلغته هذا العام ، والفرد التركى هو الذى يمد الدولة بما تحتاج إليه من مال، وهو يقتطع هذا من نفقات حياته اليومية .

فهذا المظهر المألوف من مظاهر السياسة العالمية ليس من شأنه أن يرضى الشعوب أو يردها إلى الثقة والأمن والاستقرار . ومهما يكن هذا المظهر مألوفاً فان استمرار البلاء واتصال المحن لا يغير من طبيعتها .

أما المظهر الثانى لهذه السياسة العالمية فقد مر به الناس مسرعين إلى حد ما ، مع أنه قد يكون أشد خطرا وأبعد أثرا فى السياسة الدولية مما يظنون . وهو على كل حال سيزيد المظهر الأول قوة . وسيضاعف ما فى الصراع بين المنتصرين من عنف . فقد حدثت فى شهر نوفمبر أحداث ثلاثة لها خطرها حقا .

الأول : نجاح الجمهوريين فى انتخابات الولايات المتحدة الامريكية ؛ فقد كان الديمقراطيون يصارعون روسيا صراعا شديدا عنيفا مع أنهم حزب التقدم والميل القليل إلى الناحية اليسارية ، فكيف بالجمهوريين الذين هم أصحاب اليمين فى الولايات المتحدة والمحافظون أشد المحافظة على تقاليد الاقتصاد الرأسمالى ، وعلى تقاليد التشدد فى السياسة الخارجية ، وعلى تقاليد إقامة القنعة المادية وحدها أساسا للحكم وأساسا للعلاقات السياسية الخارجية ! ليس من شك فى أن انتصار الجمهوريين سيزيد الولايات المتحدة عنادا فى موقفها من روسيا ، وإصرارا على ما أظهرت من التشدد إلى الآن .

الثانى : انتصار الشيوعيين فى الانتخابات الفرنسية . وما ينبغى أن نسرف فى تقدير

الفوز الذى ظفر به الشيوعيون فى هذه الانتخابات ؛ فهم لم يظفروا بالكثرة التى تمكنهم من الحكم وحدهم . ولو قد ظفروا بها لتغيرت سياسة العالم تغيرا أساسيا خطيرا ، بل هم لم يظفروا بالكثرة التى تمكنهم من أن يحكموا مؤتلفين مع الاشتراكيين . ولو قد ظفروا بها لكان من الممكن أن تتجه فرنسا وأوربا الغربية معها اتجاها مقلقا إن لم يكن مزعجا .

ولكنهم مع ذلك قد ظفروا بكثرة تجعل حزبهم أكبر الأحزاب الفرنسية أعواما متصلة ، ويتيح لهم أن يطالبوا برياسة الحكومة ، وتمكنهم كذلك من أن يحولوا بين فرنسا وبين الاتجاه المسرف نحو اليمين ، وتمكنهم من أن يفرضوا على الحكومة الفرنسية المضى فى الاصلاح الاجتماعى إلى أبعد مما مضى الفرنسيون منذ تم تحرير فرنسا .

فما أحدثه انتصار الجمهوريين فى أمريكا من اندفاع نحو اليمين ، يلطفه ويخفف من حدته انتصار الشيوعيين فى فرنسا ، ويمكن أن يقال إن ما تخسره روسيا بانتصار اليمين فى أمريكا البعيدة يعوضه عليها انتصار الشمال فى فرنسا .

فأما الدولة التى قد خسرت من هذين الانتخابين جميعا فهى بريطانيا العظمى ، وهى قد خسرت دون تعويض . ذلك أن الحكومة القائمة فى بريطانيا العظمى ليست محافظة يمكن أن تعتز بانتصار المحافظين الشيوعيين فى فرنسا ، وانما هى اشتراكية ، تخاف المحافظين أشد الخوف ، وتبغض الشيوعيين أشد البغض . فانتصار أولئك وهؤلاء يضعف من مركزها فى العالم كله وفى أوربا الغربية بنوع خاص ، بل هو يضعف من مركزها فى بريطانيا العظمى نفسها ، فسيعتز المحافظون البريطانيون بانتصار المحافظين الأمريكيين ، وستقتضى ظروف الحياة نفسها أن يصبح التعاون بين المحافظين على ساحلى المحيط الأطلنطيق ضرورة محتومة لحماية المصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية نفسها .

وأكبر الظن أن وقتا طويلا لن يمضى قبل أن يشترك المحافظون البريطانيون فى الحكم على نحو ما . ذلك إذا لم تقتض الظروف حل مجلس العموم ليعيد الشعب البريطانى نظره فى مركزه من السياسة العالمية ومن الاقتصاد العالمى .

على أن حزب العمال البريطانى قد مُنى بصدمة عنيفة حقاً من الناحية النظرية ، أو قل إن شئت من ناحية مبادئه وآرائه وقدرتها على الثبات فضلا عن الانتشار . وهذه الهزيمة تأتيه من الانتخابين جميعا . ففى فرنسا ينهزم الاشتراكيون انهزاما خطيراً ، وتزول بهذا الانهزام فكرة الكتلة الغربية التى كان الاشتراكيون البريطانيون يحلمون بتأليفها بين الأحزاب الاشتراكية فى غرب اوربا . وانتصار المحافظين فى أمريكا يحرج مركز الاشتراكيين البريطانيين فى بريطانيا وفى الخارج ، ويدفع هذا الحزب إلى إحدى اثنتين : فاما أن يتطرف إلى الشمال فيضحى ببغضه للشيوعيين . وإما أن ينحاز إلى اليمين فيضحى بأساسه الاشتراكى نفسه . ونتيجة هذا كله أن الاشتراكية البريطانية ، بل الاشتراكية العالمية ، قد أصبحت الآن متأخرة بالقياس إلى التطور العالمى ، وستظل وقتا طويلا أو قصيراً مظهراً للقصد والاعتدال بعد ان كانت إلى وقت قريب جداً مظهر التطرف والغلو .

أما الحدث الثالث الذى حدث فى شهر نوفمبر وكان حدوثه صدمة ثالثة للاشتراكية البريطانية ، فهو هذه الثورة أو إن شئت فقل هذا التمرد الذى اندفع إليه عدد غير قليل من

النواب العمال فى مجلس العموم . وقد لاحظ الناس أن الحكومة البريطانية اهتمت لهذا التمرد ، فأرادت أن تطرح الثقة ، وأن حزب العمال اهتم له فأراد أن يعاقب المتمردين ، وأن المحافظين البريطانيين اهتموا له فأيدوا حكومة العمال عند الاقتراع . وقد مرت هذه العاصفة دون ان تسقط الوزارة البريطانية . فظن الناس أنها مرت بسلام ، والواقع أنها بعيدة عن هذا كل البعد . فهى قد أحدثت صدعا خطيراً فى حزب العمال ، واثبتت أولا أن فريقاً من هذا الحزب يضيقون بالسياسة الخارجية التى تناهض اليسارية الروسية ، وأثبتت ثانياً أن فى هذا الحزب فريقاً يخافون على المبادئ الاشتراكية نفسها أن تفقد قيمتها وقوتها بالانحياز أو التحبب إلى المحافظين ، وأثبت آخر الأمر أن الحزب الاشتراكى البريطانى ليس من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى المحافظين تحدياً صريحاً متصلا ، وليس من القوة بحيث يستطيع أن يفرض النظام الدقيق على أعضائه فيضطرهم إلى أن يذعنوا لما تقرره الحكومة والهيئة الادارية . والحزب الاشتراكى البريطانى لايملك ولايريد أن يملك من وسائل النظام والمحافظة عليه ما يملكه الحزب الشيوعى من جهة والحزب المحافظ من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نثق بأن هذا التمرد ليس إلا أول الغيث ، وبأن الحزب الاشتراكى قد يضطر فى وقت قريب أو بعيد بحكم الظروف الداخلية والخارجية جميعاً إلى ان يشترك مع المحافظين فى الحكم أو ينزل لهم عنه كارها .

أما أثر هذا فى الحياة العالمية الآن فضئيل جداً لايكاد يحسب له حساب . ولكن الشاعر العربى لم يخطىء حين قال :

إن الأمور دقيقها ... مما يهيج له العظيم

طه حسين